

# الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَأوَنَد

خاطرة جريدة المساء

-16-

إذا كان لكل عصر طابعه الخاص، فإنّ طابع عصرنا نحن هو الخوف والقلق.

فإذا حاولنا أن نفهم أسباب الخوف أدهشنا أنّها تتلخّص في كلمة واحدة هي المجهول..

الخائفون لا يعلمون سبباً محدداً لخوفهم، إنّهم يخافون المستقبل، ويخافون الغرباء بل يخافون القريبين منهم أيضاً، وإذا لقينا أحدهم وواجهتنا في وجهة معالم القلق عبوس وتقطيب للحاجبين وتغيير في الوجه وضيق بكل الناس وبكل شيء ثم سألناه عن سبب هذه المعالم كان جوابه دائماً يتلخّص في عبارة واحدة: الدنيا تغيرت فلم يعد أحد يأمن على نفسه أو يطمئن إلى مستقبله.

والواقع أنّ هذه الظاهرة غير منتشرة في بلادنا قدر انتشارها في البلاد المتقدمة التي تعتبر رائدة الحضارة العصرية والناس فيها ينعمون بظروف مادية هي خير من ظروفنا نحن رغم دخول النفط كما يتمتعون بأوضاع تشريعية توفّر لهم من الفراغ وإمكانيات المتعة ما لا توفّر لنا أوضاعنا التشريعية. ومع ذلك فإنّ الكلام كثير عن تفكك الأسرة في الولايات المتحدة، والبرود العاطفي الذي يهبط إلى مستوى الصقيع بين الكثير من الآباء والأبناء في المجتمعات الأوروبية.. ولعلّ الوضع أن يكون نفسه في الاتحاد السوفياتي وإن كنا لا نملك الإحصاءات ولا نحصل على الأنباء الخاصة بالظروف الاجتماعية والحلقة والاقتصادية بسبب من سياسة التقييم الرسمية هناك. كما أنّ الكلام كثير عن حوادث الانتحار التي لا يسببها الفقر في أكثر الأحوال لأنّ أكثر المنتحرين هم من الطبقات الموسرة أو المرتاحة مادياً على الأقل.

لماذا هذه الظاهرة؟

علماء الاجتماع يقررون كما جاء في تقرير لأحدهم في جامعة كاليفورنيا أنّ المدنية والحضارة وفقدان أخلاق القرية وضياح القيم، كلها أسباب دفعت بعالمنا إلى ما هو علينا الآن.. ثم يقول صاحب التقرير (ليعقد أي واحد منا مقارنة بين طريقة حياته وطريقة الحياة في أيام أمه وأبيه فإنّه يدرك على الفور كيف كانت أيامهم متّسمة

بالراحة والاستقرار وهدوء البال بينما تتصل أيماننا بالتوتر والقلق والعصبية) ، وينتهي صاحب التقرير كلامه بقوله: إنّها مشكلة الأخلاق وانعدام التمسك بالقيم.

هذا وصف للواقع ولكنّه لا يطرح كل المطلوب، وهو أمر طبيعي. فالعلماء لم يستطيعوا حتى اليوم أن يقدموا الحل الشامل لمعضلة الحضارة التي تغزو العالم بالإنجازات التكنولوجية. لقد حللوا وأعادوا المركب إلى البسيط وتعرفوا إلى عناصر المشكلات ومع ذلك وقفوا عاجزين أمام المد الخفي الذي يغذي القلوب والنفوس بالقلق والتوتر والعصبية وترافقه قسوة القلوب ويزداد به التباعد بين النفوس.

والسبب في هذا العجز فقدان العلم الحديث عند أكثر أصحابه لعنصر الطمأنينة الأول الذي هو الإيمان بالرعاية الإلهية والتوكل العميق الذي لا يخامر ظلمة من الشك على الله عزّ وجل، إنّهُ الإيمان بأنّ الله وحده هو الذي يعطي الناس من فضله ويهيئ لهم أسباب الرزق، وأنّ رحمته قد سبقت غضبه، وأنّ المستقبل بيد الله. وهذا الإيمان هو وحده الذي يرفق القلوب ويصل ما انقطع من العلاقات بين الناس ويحقق لهم الألفة بينهم ويجعل بعضهم ردة البعض. هذا الإيمان هو الذي يحقق التعاون بين القوي والضعيف ويعمّق الإحساس بالطمأنينة. أما القوانين التي توضع للحماية دون أن يرفقها هذا الإيمان فليس أسهل التلاعب بها وإساءة استخدامها وجعلها مصدر لتوسّع الخلافات وتعميق الغربة بين النفوس حتى الآباء والأبناء والجارّة والجارّة الأخ وأخيه أنّ ملاك الأمر كله في عالم الإنسان هو الإيمان وحده كما عرضنا له منذ قليل.